من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
سامية زكي

دخل خالد بن صفوان التميمي يوما على أبي العباس السفاح فوجده وحده ـ وكان له نديما ـ فجلس اليه ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، اني فكرت في امرك ، وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فان مرضت مرضت انت ، وان غابت غبت أنت وحضرت نفسك التلدد بالجواري الطريفات ؛ ومعرفة اخبار حالاتهن ، ولتتخ بنا نشتهي منهن .

ان منهن يا امير المؤمنين الطويلة التي تشتهي لجسدها فهي الميداء .

وان منهن البضة البيضاء التي تحير لروعتها ، والسمراء اللعساء ، والصفراء لحمراء الدهمية ـ من مولدات المدينة والطائف واليمامة ـ ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر ، ممن تفتن بمحادثتها ، وتلذ بحلوتها .

وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيتهن يا أمير المؤمنين ورأيت حسن زيهن لرأيت شيئا حسنا .

قال أبو العباس : ويحك يا خالد ، ما سلك مسامعي كلام احسن من هذا، فاعد علي كلامك فقد وقع مني موقعا.

فاعاد عليه خالد الكلام احسن مما ابتداه ، ثم استزاده في الاسترسال فأذن له .

وبقي أبو العباس مفكرا فيما سمع.

ودخلت عليه امرأته ـ أم سلمة المخزومية ـ فلما رأته مطرقا ، مفكرا، مهموما ، قالت له :

أي أستعرب حالك يا امير المؤمنين فهل حدث امر تكرهه ؟ او اتاك خبر فارتعت له ؟

قال : لم يكن من ذلك شيء .

قالت : فما قصتك ؟

فجعل يتروى عنها ، ويتهادى من الجواب ، فلم تزل تستخبره حتى اخبرها بمقالة خالد بن صفوان .

قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟

قال : سبحان الله يتصحى وتشتمني ؟

فخرجت من عنده مغضبة ، وارسلت الى خالد جماعة من الجند في ايديهم

عمى علىه ، وامرتهم الا يتركوا منه عضوا صحيحا .

حدث خالد عن نفسه قال : انصرفت من مجلس السفاح الى منزلى ، وانا مسرور بما رايت منه واعجابه بما قلته، ولم اشك فى انه سيبعث الى بحائزة ثمينة، فلم البث طويلا حتى رايت جماعة من الجند ، وانا قاعد على باب دارى، ولما رايتهم قد اقبلوا نحوى ايقنت بالجائزة - ثم وقفوا على فسالوا عنى -

قلت ها انذا خالد بن صفوان -

فسعى الى واحد منهم واهوى الى بحشمه ، فوثبت ، ودخلت منزلى ، واغلقت على نفسى الباب -

مكثت اياما ثلاثة على تلك الحال . وواقع فى نفسى ان ام سلمه هى التى سلطت على هؤلاء .

طلبنى ابو العباس السفاح طلبا شديدا ، فلم اشعر ذات يوم الا بقوم قد هجموا على ، وقالوا لى : اجب امير المؤمنين .

ايقنت بالموت وقلت : انا لله وانا اليه راجعون . لم ار دم شيخ اضيع من دمى .

ركبت الى دار ابى العباس السفاح وليس على لحم ولا دم من الخوف . فلقيته منفردا ، ورايت فى المجلس بينا عليه ستور رقيقة ، وسمعت حركة خلف هذه الستور ، وشعرت ان وراء الستور ام سلمه او من تنقل لها الحديث

قال ابو العباس : لم ارك منذ ثلاث ليال ؟ .

قلت : كنت عليلا يا امير المؤمنين.

قال : ويحك ، انك وصفت لي في آخر دخلة من امر النساء والحواري ما لم يسلك مسامعي قط كلام احسن منه ، فاعده علي .

قلت : نعم يا امير المؤمنين ، اعلمتك ان العرب اشتقت اسم الضره من الضرر ، وان احدا ما تزوج من النساء اكثر من واحدة الا ضر وتنغص .

قال : ويحك ، لم يكن هذا في الحديث

قلت : بلى والله يا امير المؤمنين ، واخبرتك ان الثلاث من النساء كالثافي القدر يعلى عليهن .

قال : برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان كنت سمعت هذا منك في حديثك .

قلت : واخبرتك ان الاربع من النساء شر مجموع لصاحبهن يشينه ، ويهرمه ، ويسقمنه .

قال : والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا .

قلت : بلى والله .

قال : ويلك ، تكذبني ؟

قلت : واريد ان تقتلني يا امير المؤمنين ؟

قال : استمر في حديثك .

قلت : واخبرتك ان اكثر الحواري كالرجال .

هنا سمعت ضحكا من وراء الستر

فقلت : نعم ، واخبرتك ان بني مخزوم رياحين قريش ، وانت عبدك ريحانة من الرياحين ، وانت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الاماء .

وسمعت من وراء الستر قائلة تقول :

صدقت والله يا عماه وبررت بهذا

حدثت امير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ، ونطق عن لسانك .

قال السفاح : ما لك قاتلك الله واخزاك ، وفعل بك وفعل ؟

فتركته ، وخرجت مسلا ، وقد ايقنت بالحياة .

وما شعرت الا برسل ام سلمه قد صاروا الي ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت ثياب ، وبرذون .

عن الهيثم بن عدي ان رجلا انشد مصعب بن الزبير قول جميل .

ما انس لا انس منها نظره سلفت
بالحجر يوم حلتها ام منظور

فقال : لوددت اني عرفت كيف حلتها فقيل له ان ام منظور هذه حية ، فكتب في حملها اليه مكرمة . فحملت اليه فقال لها اخبريني عن قول جميل .

ما انس لا انس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم حلتها ام منظور
كيف كانت هذه الحلوة ؟

قالت : البستها قلادة بلح ، ومحنقة بلح واسطها تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئا من الحلوف . ومر بنا جميل راكبا على ناقته فجعل ينظر اليها بمؤخر عينه ، ويلتفت اليها حتى غاب عنا .

فقال لها مصعب : اني اقسم عليك الا حلوت عائشة بنت طلحة مثل ماحلوت بثينه . ففعلت . وركب مصعب ناقته ، واقبل عليهما وجعل ينظر الى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنهما ثم رجع .